من كتب الشرق والغرب

نقد النثر

ألفه قدامة فى سنة عشرين وثلثمائة

كان قدامة بن جعفر البغدادى ناقداً ، ملتهب الخاطر ، غزير المادة ، جيد الفطنة ، منظم الفكرة ، يقرأ الكتب بعين الفاحص يسائل نفسه : هل أحاطت هذه الكتب بموضوعها أم لم تحط؟ فان وجدها كما يحب ويشتهى طاب بذلك نفسا ، وإن لم يجدها وفق ما يريد انبرى للتأليف فيما قصرت فيه ليتم النقص الذى لحظه كما فعل حين ألف نقد الشعر . فقد رأى المؤلفين قبله قد استقصوا بيان العروض والقوافى ، وشرح الألفاظ الغريبة ، والمسائل النحوية ، وأفاضوا القول فى معانى الشعر ومقاصد الشعراء ، ولكنه لم يجد أحداً تصدى للتأليف فى نقد الشعر ، وبيان جيده من رديئه ، مع أن التأليف فى هذا الفن أولى وأجدى « فان الناس يخبطون فى ذلك منذ تفقهوا فى العلوم ، وقليلا مايصيبون . » (١) ولما وجد الأمر كذلك وضع كتابه نقد الشعر .

وكان قدامة مولعاً بالنظام أشد الولع وأعنفه ، يأخذ به نفسه فى كل ما يكتب وما يؤلف . ومن ثم كان يضيق أشد الضيق بكل كتاب يحيد عن جادة النظام ، ويندفع إلى معارضته بكتاب منظم دقيق يونق أبصار الناظرين ، ويروق بصائر المتوسمين . قرأ قدامة كتاب « الألفاظ الكتابية » لعبد الرحمن بن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٠ هـ فلم يرق فى نظره ؛ لأن الهمذانى فى إيراده للألفاظ لم يعن باستقامة وزن الكلمات المتعاقبة ، ولا باتساق السجعات المتقاربة ، فعارضه بكتاب « جواهر الألفاظ » .

وكذلك قرأ قدامة كتاب « البيان والتبيين » لأبى عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فوجده لايستحق هذا الاسم الخلاب ؛ لأن الجاحظ « لم يأت فيه بوصف البيان ، ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان ، وإنما ذكر فيه أخبارا منتخلة ، وخطبا منتخبة » (٢) فعارضه بكتاب أسماه كتاب « البيان » ذكر فيه كما يقول : « جملا من أقسام البيان ، آتية على أكثر أصوله ، محيطة بجماهير فصوله ، يعرف بها المبتدى معانيه ، ويستغنى بها الناظر فيه . لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكنى شرحت فى بعض قولى ما أجملوه ، واختصرت فى بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحت فى كثير منه ما أوعروه ، وجمعت فى مواضع منه ما فرقوه ؛ ليخف بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والايضاح فهمه . » (٣) ألف قدامة كتاب « البيان » هذا فى سنة عشرين وثلثمائة وعرضه على الوزير العالم على بن عيسى فقراه وأعجب به كما أعجب به كبار النقاد فى عصره ، فشهدوا له بالاجادة والاحسان والتفرد فى وصف فنون البلاغة بما لم يشركه فيه أحد وشبهوا عمله فى هذا الكتاب بوضع الخليل

(١) نقد الشعر ص ٥ . (٢) نقد النثر ص ٣ . (٣) نقد النثر ص ٥ .

ابن أحمد الفراهيدى لعلم العروض . وانتشر الكتاب ، وسارت نسخه إلى بلاد المغرب ، ثم عبرت البحر إلى الأندلس . . . ودار الزمن دورته ، وبادت كتب قدامة الكثيرة فيما باد من كتب السلف فى تلك المحن المعروفة ، ولم يبق من كتبه غير « نقد الشعر » و« جواهر الألفاظ » و « الخراج » ونسخة وحيدة من كتاب البيان كانت فى ملك عالم نحوى أندلسى وهو أبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد النافق البلنسى (٥٣٦ — ٦٠٨ هـ) (١) . وهذه النسخة محفوظة فى مكتبة الأسكوريال . وقد كتب على صفحتها الأولى هذه العبارة : « كتاب نقد النثر مما عنى به أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادى رضى الله عنه وأرضاه . للشيخ الفقيه المكرم أبى عبد الله محمد بن أيوب بن محمد نفعه الله به . وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان » . والناظر فى هذه العبارة يلحظ فى يسر وسهولة أن صاحب النسخة أو ناسخها قد استحدث للكتاب اسم « نقد النثر » ؛ لأنه قد جعله مع نقد الشعر فى مجلد واحد ، وأن هذا الاسم لم يكن شائعاً ولا معروفاً كما يشعر بذلك قوله : « وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان » . قرأ بعض المستشرقين هذه العبارة فأخطأ فى فهمها ، وكان هذا مصدراً لخطأ جمهرة المستشرقين فى هذه المسألة الواضحة ؛ فقد أخذ درنبورغ صاحب فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالأسكوريال من هذه العبارة أن مادة الكتاب لقدامة ، وأن صياغتها لأبى عبد الله محمد بن أيوب ، وقال إنه لا يعرف شيئا عن ابن أيوب هذا . وتابعه على ذلك بروكلمان وهيوار متابعة تامة . وبازاء ذلك — كما يقول الأستاذ العبادى (٢) — شك الدكتور طه حسين بك فى نسبة الكتاب إلى قدامة ، وقال فى بحثه عن البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر : « ينسب نقد النثر إلى قدامة . ولكن المطلع عليه يرى أنه لا يمكن أن يكون له ، بل هو فى الغالب لكاتب شيعى ظاهر التشيع قد صنف كتبا عدة فى الفقه وعلوم الدين يشير إليها ويحيل عليها فى شئ من الطمأنينة والارتياح . » (٣) وقد عهد الدكتور طه حسين إلى الأستاذ العبادى تحقيق هذه المسألة ، فكتب فى تحقيقه يقول : « أما نحن فبعد طول البحث ثبت عندنا أن الكتاب لقدامة كما جاء على الورقة الأولى من النسخة المخطوطة . » واستدل على ذلك بأن الكتاب لا بد أن يكون قد كتب فى عصر قدامة ؛ لأن أسلوبه وطريقته وروحه الفلسفى اليونانى « كل ذلك يشير فى جلاء ووضوح إلى أنه من آثار القرن الرابع ، ثم إنه ليس من بين الأعلام الكثيرة الواردة به علم واحد يمكن أن يقال إنه متأخر عن عصر قدامة تأخراً يذكر . والمقارنة الموضوعية بين كتابى نقد النثر ونقد الشعر ترى تقاربا عجيبا فى كثير من المعانى فضلا عن طريقة التعبير عنها مما يرجح أن الكتابين صدرا عن أصل واحد . » وضرب لذلك عدة أمثلة من الكتابين قارن بينها ، وخلص منها بنتيجة تؤيد إثبات الكتاب لقدامة . ولكن الدكتور طه لم يقتنع برأى الأستاذ العبادى وما زال عند رأيه الأول من أن الكتاب « لا يمكن أن يكون لقدامة » بدليل أنه تحدث بعد ذلك بأعوام عن « كتاب نقد النثر المنسوب لقدامة » وقال فى حديثه هذا : « والكتاب ليس لقدامة بيقين » (٤) .

وكان طبيعياً أن يشيع الشك فى نسبة

---

(١) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢٣ .
(٢) مقدمة نقد النثر ص ٤٢ .
(٣) مقدمة نقد النثر ص ٢٠ .
(٤) من حديث الشعر والنثر ص ١٢٥ .

الكتاب . وأن يجزم كل من يعرض له بنفيه عن صاحبه . ومن أعجب ما رأيت أن بعض كبار الأساتذة قد استدل على أن الكتاب لم يؤلفه قدامة بأن مؤلفه قلد الجاحظ ، وقدامة لا يقلد أحداً ؛ لأنه مستقل فى آرائه ! وبأنه شيعى وقدامة بعيد كل البعد عن هذا الاتجاه ، وبأنه قد ألف فى علوم الدين كتباً ، وهذه ناحية بعيدة عن قدامة كل البعد ! وبأن منهجه فى البحث إجمالى وفى أسلوبه سجع وازدواج ، ومنهج قدامة تفصيلى وأسلوبه مرسل بعيد عن السجع والازدواج . وهى أدلة واهية كما ترى لا تثبت أمام النقد إلا بمقدار ما يلقفها . وقد كتب الأستاذ محمد كرد على بك فى مجلة المجمع العلمى كلمة عن الطبعة الثالثة من هذا الكتاب قال فيها : « ليس هذا الكتاب لقدامة كما ذكر فى الكتاب وأكده الأستاذ العبادى بل هو لرجل شيعى مجهول كما قال الدكتور طه ، ولا يزال الأستاذ العبادى مصراً على نسبته لقدامة ، وما أورد على ذلك ضعيف » . وأنا لا أوافق الأستاذ على رأيه فى أدلة الأستاذ العبادى ، وهى عندى قوية كل القوة كافية الدلالة على أن الكتاب لقدامة . بل كان يكفى فى نسبته له ما جاء على الصفحة الأولى من النسخة المخطوطة ، ولم يكن هناك ما يسوغ الشك أو يدعو إليه . ولو ارتضينا الشك فى الكتب العربية على هذا النحو لنفينا كثيراً منها عن أصحابها ؛ لأنه ليس لنا من سند فى نسبتها إلى مؤلفيها غير وجود أسمائهم عليها .

والحق الذى لا مرية فيه أن هذا الكتاب المسمى بنقد النثر قد ألفه قدامة ، ويشهد بذلك معاصروه . قال أبو حيان التوحيدى — وهو أعظم مؤرخ ثقافى لعصره : « وما رأيت أحداً تناهى فى وصف النثر بجميع مانيه ، عليه غير قدامة بن جعفر فى المنزلة الثالثة من كتابه . » قال لنا على بن عيسى الوزير : « عرض على قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة واختبرته فوجدته قد بالغ وأحسن وتفرد فى وصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى مما يدل على المختار المجتبى ، والمعيب المجتنب . ولقد شابه فيه الخليل بن أحمد فى وضع العروض . ولكنى وجدته هجين اللفظ ، ركيك البلاغة فى وصف البلاغة ، حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه ، وكأن ما يدل به غير ما يدل عليه . وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم وحسن التصور وتوارد المعنى ونقد الطبع وتصرف القريحة . ولولا أن الأمر على ما ذكرت لكان ذلك الطريق الذى سلكه والفن الذى ملكه ، والكنز الذى هجم عليه ، والنمط الذى ظفر به ، قد برز فى أحسن معرض وتحلى بألطف كلام ، وماس فى أطول ذيل ، وسفر عن أحسن وجه ، وطلع من أقرب نفق ، وحلق فى أبعد أفق . » (١) هذا هو الدليل الذى يفصل فى الأمر ويضع الحق فى نصابه ويريح الكتاب والباحثين من عناء الافتراض الظنى . ولكن قد يظن بعض الناس أن هذا النص وإن كان فاصلا فى أن قدامة قد ألف كتابا وصف فيه فنون البلاغة فأحسن الوصف وأجاد الابداع ، فانه غير فاصل فى أن يكون هذا الكتاب الذى بين أيدينا هو الذى عناه أبو حيان وتحدث عنه الوزير ؛ لأنهما لم يذكرا اسم الكتاب الذى ألفه قدامة . ولكن عدم تسميتهما له لا يفيد من يظن هذا الظن شيئا ؛ فان وصفهما للكتاب الذى عنياه ينطبق على نقد النثر كل الانطباق . وإن من الصفات التى وصف بها ووجدت فى نقد النثر ما يقوم مقام الاسم الصريح

(١) الامتاع والمؤانسة جـ ٢ ص ١٤٥ .

لأنه من الملامح الأصيلة والصفات اللازمة التى تغنى بمجرد ذكرها عن تسمية الموصوف .

أليس مما وسم به كتاب قدامة أنه قد وصف النثر بجميع مافيه وعليه كما يقول أبو حيان ، وأنه قد تفرد بوصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد كما يقول الوزير ؟ بلى ! وإن تلك الأوصاف بعينها لهى أوصاف المنزلة الثالثة من كتاب نقد النثر . فقد قسم المؤلف وجوه البيان فى صفحة ١٠ بقوله : « والبيان على أربعة أوجه فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها ، ومنه البيان الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكرة واللب ، ومنه البيان الذى هو نطق باللسان ، ومنه البيان الذى يبلغ من بعد أو غاب . » والكتاب كله تفصيل لهذه الأنواع ففى صفحة ٢٠ نجد المؤلف يقول : « باب فيه البيان الأول وهو الاعتبار . قد قلنا إن الأشياء تبين بذواتها لمن تبين ، وتعبر بمعانيها لمن اعتبر . وإن بعض بيانها ظاهر وبعضه باطن . ونحن نذكر ذلك ونشرحه . . . » وفى صفحة ٤١ : « باب فى البيان الثانى وهو الاعتقاد . قد قلنا إن الأشياء إذا بينت بذواتها للعقول ، وترجمت عن معانيها وبواطنها للقلوب صار ما ينكشف للمتبين من حقيقتها معرفة وعلماً مركوزين فى نفسه ، وهذا البيان على ثلاثة أضرب . . . » وكل بيان من البيانين يسمى منزلة فهاتان منزلتان . بقى من أقسام البيان الأربعة بيان اللسان ، وبيان الكتاب وقد جمعهما المؤلف فى منزلة واحدة وهى المنزلة الثالثة . قال فى صفحة ٤٨ : « باب فيه البيان الثالث وهو العبارة . . . » ونجده فى هذا البيان الثالث أو فى هذه المنزلة الثالثة يقول فى صفحة ١٠٥ : « باب فيه المنثور وما جاء فيه ، وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة أو ترسلا أو احتجاجاً أو حديثاً . ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه . » وقد فصل القول فى الخطابة والترسل من صفحة ١٠٥ إلى صفحة ١٣٢ ثم تكلم عن الجدل والمجادلة من صفحة ١٣٣ إلى صفحة ١٥٤ ، وأفاض فى الكلام عن الحديث من صفحة ١٥٤ إلى صفحة ١٦٦ التى ينتهى بها الكتاب . من هذا العرض المجمل يتبين أن المنزلة الثالثة من كتاب قدامة الذى تحدث عنه أبو حيان والوزير هى نفس المنزلة الثالثة من كتاب نقد النثر أو من كتاب « البيان » كما سماه قدامة حين ألفه ليعارض به الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين . وكان لزاما على ناشريه الفاضلين أن ينشراه باسمه الأصيل ليحققا المقصد الذى أراغ إليه قدامة من التسمية التى ارتضاها لكتابه ولم يبغ عنها حولا . ولعلهما فاعلان ذلك عند إعادة طبع الكتاب للمرة الرابعة إن شاء الله .

السيد أحمد صقر